طريق الحرير ـ طريق الغجر بين الشعوب
(نموذج حلب في العصر العثماني)

د. محمد م. الارناؤوط
جامعة اليرموك

« لقد سارت مع القوافل الغجرية الجوالة المثقلة بالحرير والشاي جميع الافكار والاخبار والتقاليد والعادات خلال البلدان التي اجتازتها والتي استراحت فيها .. وقد أغنى الغجر الموسيقى والرقص والمسرح المتنقل وفن العرافة كما ساهموا مساهمة فعالة في تطوير بعض الصناعات اليدوية .. »(١) .

« حلب جديرة بهذا الاهتمام .. كانت على مر العصور محط القوافل التجارية العابرة شرق البلاد وغربها ... فاختلط سكانها بالعديد من الشعوب العربية والاجنبية وتم بين هؤلاء التمازج وظهر التأثير سواء في لغة الحديث أو في طرق العيش .. »(٢) .

مقدمة :

يُعتبر « طريق الحرير » من أقدم وأهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وبالتحديد بين آسيا وأوربا ، وبالتالي في العالم ، خلال العصرين القديم والوسيط وحتى أواخر العصر الحديث تقريبا . الا أن هذه التسمية (طريق الحرير) ، التي كان أول من استعملها العالم الالماني فردينالد فون ريشتهوفن في القرن التاسع عشر ، لا تعني بطبيعة الحال ان هذا الطريق كان يُستعمل للتجارة بالحرير فقط . فقد كان هذا الطريق يشحن الى الغرب أهم البضائع المرغوبة في العالم القديم والوسيط كالتوابل والعاج والاحجار الكريمة ..الخ(٣) . ومع هذا فقد كانت أهمية هذا الطريق عبر التاريخ لا تنبع فقط من نقل البضائع الثمينة والمرغوبة كالتوابل والحرائر والاحجار الكريمة ، بل من انتقال الافراد والافكار والاخبار من بلد الى اخر ومن قارة الى أخرى حتى أصبح هذا الطريق جسرا للتواصل بين الشعوب والحضارات . وهكذا برزت ونمت مع مرور الزمن ، نتيجة لهذا التواصل بين الشعوب والحضارات ، ظواهر جديدة في المجالات الثقافية والعلمية والاجتماعية ، وهي التي تحظى الان باهتمام الباحثين في مختلف البلدان(٤) .

وفي هذا الاطار يتميز هذا الطريق بأهمية خاصة بالنسبة لبعض الاقوام والشعوب . فقد كان هذا الطريق يشهد دائما تنقل الافراد ، وأحيانا تنقل الجماعات والاقوام ، من بلد الى اخر . وفي هذه الحالة كان الانتقال الجماعي للاقوام والشعوب يحمل معه خواصه الحضارية ، وبالتحديد نقل نمط الحياة بشكل كلي أو جزئي من بلد الى اخر ومن قارة الى اخرى . وفي هذه الحالة أيضا كان التفاعل الحضاري يقوم بدوره بغض النظر عن مصير هذه الاقوام والشعوب في الاماكن الجديدة التي استوطنتها ، وبالتحديد استمرار هذه الاقوام والشعوب الاصلية أو ذوبانها في الشعوب التي حلت في وسطها(٥) .

ومن هذه الاقوام والشعوب يرتبط « طريق الحرير » بشكل خاص بالغجر حتى يمكن القول ان « طريق الحرير » كان « طريق الغجر » عبر التاريخ . فقد استمر الغجر خلال مئات السنين في الانسياح عبر هذا الطريق من أقصاه الى أقصاه ، وبالتحديد من الهند الى فرنسا وانكلترا . وهكذا من مقارنة الخرائط بين « طريق الحرير » و « طريق الغجر » يبدو لنا مدى التقارب أو مدى التطابق بين الطريقين خلال المراحل المختلفة . فقد كان الطريقان يسيران من الهند الى افغانستان ، ومن افغانستان الى بلاد فارس حيث يتم التشعب هناك في اتجاهين : نحو الشمال باتجاه بحر قزوين وارمينيا وروسيا ، ونحو الجنوب باتجاه الخليج العربي . ومن الخليج العربي كان الطريقان يصعدان شمالا مع دجلة والفرات ليتفرعا اخيرا في اتجاهين : الاول نحو الاناضول والبوسفور ومن هناك نحو البلقان وأوربا الغربية ، والثاني نحو حلب وفلسطين الى مصر(٦) .

ويذهب معظم الباحثين الى ان هذا الانسياح الكبير للغجر استمر منذ القرن التاسع للميلاد ، حين وصل الغجر الى بلاد فارس وبيزنطة(٧) ، حتى مطلع القرن الرابع عشر حين وصل الغجر الى بلاد البلقان ، حيث أخذوا منذ ذلك الحين يستقرون ويشدون غيرهم الى الاستقرار في البلاد الاوربية(٨) . وقد أدى توسع الدولة العثمانية حينئذ في هذه المناطق ، وبالتحديد في الاناضول والبلقان والشام الى دخول عدد كبير من الغجر في أراضيها حتى انها شكلت لهم سنجقاً خاصاً بهم(٩) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه في مطلع القرن السادس عشر الميلادي (١٥٢٢-١٥٢٣) أصبح لدينا احصاء عثماني دقيق عن الغجر في استنبول وبلاد البلقان ، وبالتحديد عن أماكن توزعهم وديانتهم ومهنهم ، كما ان السلطان العثماني سليمان القانوني أصدر سنة ١٥٣٠م القانون الخاص بالغجر في الدولة العثمانية(١٠) .

ان الدافع وراء اختيار حركة الغجر عبر « طريق الحرير » من آسيا الى أوربا لاجل هذا البحث يكمن في « نموذجية » الحالة الغجرية بالنسبة لطريق الحرير كطريق

للحوار والتواصل بين الشعوب ، وبالتحديد للتفعيل والتفاعل الحضاري . فالفجر أولا نجحوا ، على الرغم من الظروف الصعبة التي أحاطت بهم ، في الاحتفاظ بهويتهم المميزة في الاماكن الجديدة التي حلوا بها ، والتي تبعد الاف الكيلومترات عن موطنهم الاصلي ، وهو ما كان يثير ضيق البعض واعجاب البعض الاخر . وما يهمنا هنا ان الفجر نجحوا بالفعل في نقل « حضارتهم »(١١) الى الاماكن الجديدة التي حلوا فيها، حيث اصبحوا يتميزون ببعض المهن التي نقلوها معهم من الموطن الاصلي كممارسة الحدادة وصناعة المناخل والغرابيل وترويض الحيوانات والعرافة والغناء والموسيقى والرقص . . الخ. ومن ناحية اخرى يمثل الفجر حالة نموذجية بالنسبة للباحث فيما يتعلق بتتبع المؤثرات المختلفة للاماكن التي عبروها في طريقهم الطويل وللشعوب التي احتكوا بها في تنقلهم من أقصى اسيا الى اقصى اوربا(١٢). وهم يتميزون بالكفاءة في الاقتباس من جميع الميادين ومن جميع الشعوب التي يحتكون بها ، وليس فقط بالكفاءة في الاحتفاظ بخصوصيتهم الحضارية . وبعبارة اخرى ان الفجر يمثلون في هذه الحالة مجالا خصبا لدراسة أشكال التفعيل والتفاعل الحضاري بين الشعوب المنتشرة على طول طريق الحرير .

أما فيما يتعلق بالدافع وراء اختيار حلب بالذات لاجل هذا البحث فيكمن في موقع حلب المهم بالنسبة لطريق الحرير وتطورها كمتروبول في مطلع العصر العثماني. فقد تطورت حلب بشكل سريع في مطلع العصر العثماني نتيجة لازدهار التجارة فيها بين الشرق والغرب ، حتى ان مساحة المدينة تضاعفت بسرعة وأصبحت تتميز بالمنشآت العمرانية الضخمة (الخانات وغيرها) التي تعبر عن الدور الجديد الذي أخذت حلب تضطلع به في المنطقة(١٣) . ومن ناحية أخرى فقد أدى الازدهار التجاري والعمراني بحلب الى جذب السكان من مختلف المناطق ومن مختلف الاجناس والاديان حتى أصبحت بالفعل متروبولا في المنطقة تماثل استنبول وسالونيك بالطابع العالمي. فبعد أن كانت أغلبية السكان من العرب المسلمين نجد أن المدينة اجتذبت مع ازدهارها التجاري في مطلع العصر العثماني عناصر جديدة من المسيحيين الشرقيين (الموارنة والارمن) والاوربيين (البنادقة والانكليز والبلجيك والفرنسيين وغيرهم) ومن المسلمين العثمانيين (الاتراك ، الكرد ، الشركس ، الالبان والبوشناق)(١٤) بالاضافة الى الفجر الذين أصبحوا يعدون من العناصر السكانية للمدينة(١٥) .

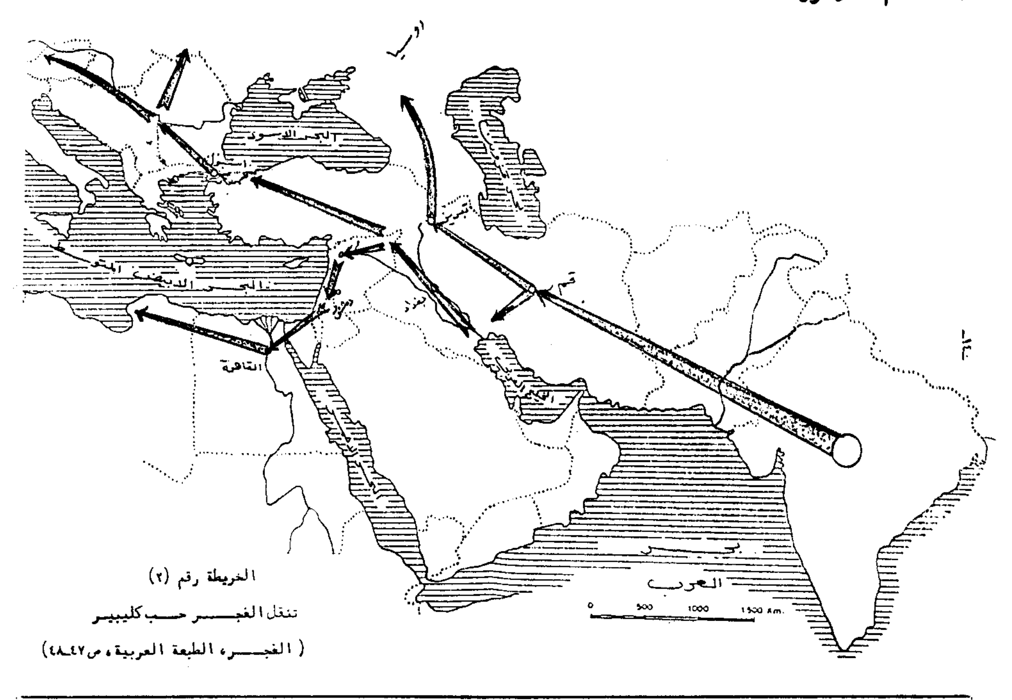
ونظرا لطبيعة البحث فقد رأينا من الافضل توزيعه على خمسة محاور تعبر عن الاتجاهين المتعاكسين لدى الفجر لدى اختلاطهم مع الشعو بالاخرى : الاحتفاظ بالذات والانفتاح على الاخرين أو التأثر بالمحيط الجديد والتأثير في المحيط الجديد:
١ ــ الاسم ، ٢ ــ الدين ، ٣ ــ السكن ، ٤ ــ المهن ، ٥ ــ الفجر في نظر الغير .

اسم الفجر:

مع ان الفجر يميزون أنفسهم باسم مشترك كبقية الشعوب ، ألا وهو « روم »أو « دوم » في اللغة الفجرية ، الا أنهم عرفوا باسماء عديدة من قبل الشعوب الاخرى . وربما كان هذا غير مستغرب اذا ما أخذنا بعين الاعتبار كثرة الاماكن التي عبروها أو استقروا بها وكثرة الشعوب التي اختلطوا بها . وهكذا فيما يتعلق بالمنطقة العربية فقط نجد ان الفجر يعرفون باسماء عديدة كالزط والفجر والنور والقرباط والحلبية والقاولية (١٦) .

أما فيما يتعلق بحلب فيلاحظ ان الفجر هناك قد اشتهروا باسم «القرباط». وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا الاسم يطلق على الفجر الى اليوم في شمال سورية وفي الساحل السوري (منطقة اللاذقية وطرطوس). ويلاحظ هنا ان هذا الاسم يمتد ليشمل بشكل مستقيم الفجر من شمال افغانستان الى شمال سورية مرورا ببلاد فارس . وفي الواقع يؤكد معظم الباحثين ان هؤلاء الفجر المنتشرين في افغانستان وبلاد فارس وشمال سورية ، والمعروفين باسم واحد (القرباط) ، انما يعودون الى عشيرة واحدة(١٧) . ومع هذا يختلف الباحثون هنا في تفسير هذا الاسم الذي اطلق لاول مرة على الفجر في افغانستان ، بعد وصولهم من الهند . فبعض العلماء يرى أنه مشتق من كلمة « غربة » العربية (غُرْبَة ← غُرْبَتْ ← غُرْبات ← قُرْباط) ، بينما يرى الاخرون أنه مشتق من كلمة « غورب » الفارسية التي تعني الغياب عن البيت والموطن(١٨) . ولا بأس من الاشارة هنا الى ان الفجر عرفوا بهذا الاسم (القرباط)أيضا في بعض البلاد الاخرى التي رحلوا اليها واستطونوا فيها كاليونان والبانيا ويوغسلافيا(١٩) .

وكما هو الامر مع البلاد الاخرى فان الفجر في حلب أيضا يحتفظون لانفسهم باسمهم الخاص . ففي العادة يعتبر الفجر الاسم الذي يطلقه المحيط المحلي عليهم لا يليق بهم(٢٠) ولذلك يتمسكون باسمهم الخاص . وهكذا نجد في حلب أيضا انالفجر هناك يتمسكون باسمهم الاصلي « دوم » . وقد أورد لنا العلامة خير الدين الاسديفي « موسوعة حلب المقارنة » بعض المعطيات التي حصل عليها من الفجر أنفسهم في حلب ، والتي تتعلق باسمهم . فقد أورد الاسدي ما ذكره له الفجر من أن « اسمنا الاصلي دوم » ، وحتى انه أورد جملة في اللغة الفجرية « بابم دومه » أي « أبي قرباطي »(٢١) . وتجدر الاشارة هنا الى ان كلمة « دوم » هي من أصل درافيدي وهي تعني « رنة » في السنسكريتية ، ومن ذلك « دوماس » أي الشخص الذي يعيش على الرقص والغناء(٢٢) . ويبدو من هذا قدم الارتباط ، الذي سيرد معنا لاحقا ، بين الفجر والرقص والغناء الذي شاع عنهم في كل مكان حلوا فيه .



الخريطة رقم (٢)

تنقل الغجر حسب كليبير

(الغجر، الطبعة العربية، ص٤٧-٤٨)

الخريطة رقم (٣)

تنقل الغجر حسب ت. فوكانوفيتش

(T.Vukanović,Romi(Cigani) u Jugoslaviji)

دين الفجر :

كان الفجر كغيرهم من سكان الهند القدماء يؤمنون ببعض المعتقدات الخاصة ، فكانوا يعتقدون بالاله العظيم دل Del أو دفل Devel أو القوة المعطاءة الخالقة للعالم والبادية في كل مجال للعالم (السماء ، المطر ، الطبيعة . . الخ) وبالشيطان بنغ beng أو القوة الشريرة والمعارضة التي كانت قد شاركت الاولى في خلق الارض(٢٣) . الا أن الفجر ، وبما عرف عنهم من كفاءة في التكيف والتفاعل مع الاوساط الجديدة التي استقروا فيها ، سرعان ما أخذوا يعتنقون أديان الشعوب التي اختلطوا معها ويصبحون أحيانا أشد ايمانا بها من أصحابها الاصليين(٢٤) . ومع هذا لا يخلو الامر من اتهامات خطيرة توجه أحيانا للفجر على أساس أنهم شعب لا دين له . ولكن الواقع يوضح لنا ان الفجر مثلهم مثل غيرهم من الشعوب ، بينهم المتدين الحقيقي والمتدين الظاهري، وهم يدينون عادة بالدين الرسمي للدولة التي يعيشون فيها(٢٥) .

وفيما يتعلق بحلب تجدر الاشارة هنا الى ملاحظة مهمة وردت لدى مؤرخ حلب المعروف الغزي . ففي كتابه « نهر الذهب في تاريخ حلب » يذكر الغزي عن الفجر أنهم « متى توطنوا بلدا دانوا بدين العنصر الغالب عليه »(٢٦) . ويفهم بالاستناد الى هذه العبارة ان الفجر في حلب اعتنقوا الاسلام كما في البلاد العربية المجاورة(٢٧) . ويؤكد الغزي نفسه في موضع آخر ان الفجر في حلب « مسلمون يقومون بشعائر الدين الاسلامي بتمامها فيصومون ويصلون . . »(٢٨) .

سكن الفجر :

يعتبر السكن من العناصر المعبرة عن الشخصية الخاصة بالفجر والمحافظة على هذه الشخصية في آن واحد . فالشعور بالتميز والاحساس بالحذر من الاخرين ، بالاضافة الى الرغبة الدفينة في الابقاء على « العالم الفجري »، كان يدفع الفجر في كل مكان وصلوا اليه الى العيش ضمن تجمع خاص بهم . وكان هذا « التجمع » يأخذ شكل معسكر بالقرب من المدن ، أو موقع مؤقت في ضواحي المدن . ولكن مع توسع المدن في العصر الحديث أخذت تتبلور وتتطور المحلات أو الحارات الخاصة بالفجر في المدن الشرقية والبلقانية(٢٩) . ولا شك انه مما ساعد على هذا التطور ان مفهوم المدينة في الدولة العثمانية كان يقوم على التعددية الدينية والقومية ، بحيث ان كل طائفة أو قومية في المدينة العثمانية كانت تتميز بحارة أو محلة خاصة كـ « حارة اليهود » و « حارة النصارى » و «حارة الاكراد » الخ(٣٠) .

وهكذا في حلب أيضا ، كما في بقية المدن المجاورة(٣١) ، نجد للفجر حارة خاصة بهم تسمى « حارة القرباط » وتقع شرق جامع التوبة ، أي في ضاحية حلب القديمة وقلب حلب الحديثة(٣٢) . وقد وصل عدد بيوت هذه الحارة في أواخر العصر العثماني

الى (٧٩) بيتا ، وعدد سكانها الى (٣٩٢٠) نسمة كلهم من المسلمين (٣٣). وتبدو هذه الحارة ، بالاستناد الى وصف الاسدي المعاصر والمهتم بها ، كأية « حارة غجرية » اذ أن بيوتها كانت مبنية من الطين ومطلية بالكلس بينما يمر الكهريز مكشوفا وسط الشارع. الا أن هذه الحارة ، كبقية حارات حلب القديمة ، لحقها الهدم ضمن مشروع تجميل حي النيرب في الثمانينات(٣٤) .

المهن الخاصة بالفجر :

تعتبر « المهن الفجرية » من عناصر التفعيل الحضاري للفجر ، أي من العناصر التي قام الفجر بنقلها من موطنهم الاصلي (الهند) الى المواطن الجديدة التي استقروا فيها ، واشتهرو بها بين الشعوب المختلفة . وبعبارة أخرى يبدو في هذا المجال دور الفجر في التواصل الحضاري بين الشعوب في أنهم نقلوا بعض المهن من موطنهم الاصلي ونجحوا في اثارة اهتمام الاوساط الجديدة التي حلوا فيها بهذه المهن ، ولكنهم بقوا في الوقت نفسه يحتكرون هذه المهن كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة وصنع بعض الادوات من الخشب (السلال والمناخل والقدور الخ) حتى أصبحت مرادفة لهم .

وتجدر الاشارة هنا الى ان ارتباط الفجر بهذه المهن انما يعود الى وضعهم الاجتماعي في الموطن الاصلي (الهند) . فقد كان نظام الطبقات في الهند القديمة يفرض على الطبقات الاجتماعية الدنيا والمنبوذين احتراف المهن التي تشمئز منها الطبقات العليا لأسباب دينية أو اقتصادية . وهكذا لو نظرنا الى قائمة المهن المحرمة والملعونة التي احتوتها « قوانين مانو » Manava Dharma Sastra التي يعود تاريخها الى القرن الاول قبل الميلاد ، لوجدنا ان الفجر قد احترفوا بالذات تلك المهن التي حرمها مانو كالتنجيم والرقص والغناء وترويض الحيوانات والحدادة الخ(٣٥). ولكن هذه المهن التي كانت محرمة وملعونة في الهند لم تعد كذلك خارج الهند ، حيث أخذ الفجر يشتهرون بها ويتعيشون منها(٣٦) .

وهكذا نجد في حلب ، كما في البلاد المجاورة ، ان الفجر قاموا بدورهم في نقل واحتكار بعض المهن التي بقيت مرتبطة باسمهم . ومن هذه المهن التي اشتهروا بها في حلب العرافة أو التنجيم . وحول هذا يذكر لنا الاسدي في « موسوعة حلب المقارنة » ان «القرباط نساء ورجالا ماهرون جدا في فتح الفال»(٣٧) . والى جانب هذا اشتهر الفجر في حلب بشكل خاص باحتراف الرقص والغناء حتى أصبحوا يعرفون باسم « المطاربة » ، أي اصحاب الطرب أو المطربون ؛ وذلك « لان منهم الطبال والزمار والعبلة والحجيات » كما يقول الاسدي(٣٨) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه في العراق المجاور يطلق على حي الفجر اسم « حي الطرب » لاحتراف أو احتكار الفجر لهذه

المهنة(٣٩) . وفي الواقع ان الفجر يقدرون بشكل خاص الطبول والدفوف ، التي يجيدون الضرب بها ، والتي يرجح أن تكون ذات اصل هندي(٤٠) . وبالاضافة الى هذا اشتهر الفجر في حلب ، كما في كل مكان ، باحتراف صنع المناخل والغرابيل وتجليد الطبول من شعور وجلود الحيوانات الميتة ، ولذلك اختصوا في حلب بالمتاجرة في جلود الدواب الميتة(٤١) . وهكذا في اطار حديثه عن « الصنائع في حلب » سلم الغزي بان الفجر في حلب هم الذين يختصون بهذه الصنعة (شد المناخل والغرابيل وتجليد الطبول)(٤٢) .

الفجر في نظر الغير (المحيط المحلي او الحلبي) :

لقد مر معنا ان الفجر يتميزون بنقل نمط معيشتهم من الموطن الاصلي الى المواطن الجديدة التي يستقرون فيها ، ويشتهرون باحتراف مهن معينة قد تختلف النظرة اليها من مكان الى آخر ومن شعب الى آخر . وبالاضافة الى هذا فقد تميز الفجر باستسلامهم لوضعية دونية في المجتمعاتالتي استقروا فيها، والتي كانتتبقيهم في حالة غجرية متماسكة . ولاجل هذا لا يعد من المستغرب أن تتشكل صورة نمطية عند كل طرف ازاء الطرف الاخر . ولا شك ان الادب الشعبي في هذه الحالة يعتبر المصدر الغني للتعرف على الصورة النمطية التي يكونها ويحفظها كل طرف عن الطرف الاخر(٤٣) .

وهكذا نجد ان الادب الشعبي في حلب ، كما في الادب الشعبي للشعوب المجاورة، يحفل بصورة نمطية غنية للوسط المحلي (الحلبي) عن الفجر . ان العنصر الاول في هذه الصورة النمطية يعبر عن دونية الفجر ويتمثل في المثل الشعبي« مثل شيخ القرباط : كبير في عين حالو زغير بعين الناس »(٤٤) . وتجدر الاشارة هنا الى أنه من التقاليد الاساسية للفجر انتخاب زعيم أو رئيس للجماعة أو العشيرة الفجرية فيكل مكان ، وهو عادة ينتخب مدى الحياة وتمتد سلطته لتشمل الجماعة أو العشيرة كلها وبذلك يمتلك الحق في فرض أية عقوبة ، بما في ذلك عقوبة الطرد ، بحق الافراد ولا يعتبر نفسه مسؤولا أمام أحد(٤٥) . وبعبارة أخرى فان سلطة الزعيم أو الرئيسمطلقة على أتباعه ولذلك يحظى بمكانة كبيرة بين الفجر ، الا أنه ليس كذلك في نظر الغير أو الوسط المحلي الذي ينظر اليه باعتباره من فئة دونية . أما العنصر الثاني في هذه الصورة النمطية عن الفجر فهو الفقر ويمثله المثل القائل « عند القرباط ما في قيمق »(٤٦) . ولا شك ان هذا العنصر ينسجم مع العنصر الاول المتعلق بالفجر كفئة وضيعة أو دونية ، الا أنه لا يعبر تماما عن واقع الحال . وقد أشار المؤرخ الغزي في وقته الى ان الفجر ليسوا متساويين في الفقر كما قد يبدو بل يوجد بينهم « الاغنياء وأهل اليسار »(٤٧) . وهكذا نجد ان « الفقر الفجري » ليس فقرا بالمعنى المعروف

دائما وانما هو يمثل أيضا نمطا معيشيا يتخلص به « أغنياء الغجر » من فضول وتطاول الوسط المحلي(٤٨) .

ويشير العنصر الثالث في هذه الصورة النمطية الى حرص أو بخل الغجر ، ويعبر عنه المثل القائل « كأنك قرباطي »(٤٩) . ولدينا ما هو أكثر من هذا اذ ان الغجر أو القرباط في حلب أغنوا اللهجة الحلبية بفعل « قَرْبَط » الذي أصبح يستعمل بمعنى « بخل »(٥٠) . ويبدو لنا ان هذا العنصر ينسجم أيضا مع العنصر الاول والثاني ، الا أنه لا يعبر تماما عن واقع الحال . فالمؤرخ الغزي ، الذي يبدو من تاريخه انه على معرفة جيدة بالغجر في حلب ، يقول في تعليقه على هذا المثل الشائع في حلب أنه « يوجد في بعضهم من السخاء ما لايوجد في كثير من الاغنياء »(٥١) . أما العنصر الرابع في هذه الصورة النمطية فيتعلق بانطباع شائع عن الغجر ويمثله المثل القائل « القرباطي ما بقول لمرتو وين كنتي ، بقول لا : اش جبتي ؟ »(٥٢) . ويرتبط هذا في الواقع بنظرة الغجر الى العمل ، وبالتحديد بدور المرأة في العمل . فالمرأة الغجرية تشتهر بانها امراة عاملة ويعتمد دخل الاسرة كلها في بعض الجماعات الغجرية على ما تدره المرأة من ربح من الاعمال التي تمارسها . وتتجول النساء الغجريات عادة لممارسة العرافة (فتح الفال) أو بيع الادوات التي يصنعها الازواج ، كالسلال والمناخل والقدور والملاعق الخشبية الخ . ، ولذلك يهتم الغجري لحرصه على المال بسؤال زوجته عندما تعود الى البيت عما جمعته من مال طيلة النهار . ولاشك ان هذا ينسجم مع العنصر الثالث للصورة النمطية عن الغجر ، الذي يتعلق بحرص أو بخل الغجر ، ولكنه بالطبع لا ينسجم مع نظرة الوسط المحلي لخروج المرأة من البيت للعمل بهذا الشكل .

* * *

الحـواشي :

(١) من مقدمة لطفي الخوري للترجمة العربية لكتاب :
Jean-Paul Clebert, **The Gypsies,** London 1963.
جان ـ بول كليبير ، الغجر ـ دراسة تاريخية اجتماعية فولكلورية ، ترجمة لطفي الخوري ، بغداد ، وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨٦ ، ص ١١ .

(٢) من مقدمة محمد كمال ل « موسوعة حلب المقارنة » ج١ ، حلب ، جامعة حلب ،ص ج.

(٣) ف. هايد (W. Heyd) تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ج١، ترجمة احمد محمد رضا ومراجعة د. عز الدين فودة ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص١٣ .

(٤) Nëpër rrugët e mëndafshit « Bashkimi » , Tiranë 30. 11. 1990, f. 8.

(٥) للتوسع حول هذا انظر نماذج من هذه الحالات (النموذج الافاري ، النموذج الهنغاري ، النموذج الغجري) لدى : برومليه ـ بودولني ، الاثنوس و التاريخ ، ترجمة طارق معصراني ، موسكو ، دار التقدم ، ١٩٨٨ ، ص ٢١٨ ـ ٢٣٠ و ٢٥٠ ـ ٢٥٤ .

(٦) انظر الخرائط .

(٧) يميل معظم العلماء الى تحديد القرن التاسع كبداية لتحرك الغجر نحو الغرب بينما يذهب الباحثالمعروف كليبر الى تحديد سنة١٠٠٠م كتاريخ مناسب : كليبير ، ص ٤١.
Muslim Peoples,A World Ethnographic Survey, edited by Richard V. Weekes, London 1986, pp. 305 - 306 ; Jean - Pierre Liegeois,**Gypsies,London** 1986, pp. 36-38 .

(٨) تشير الوثائق المكتشفة حتى الان أن الغجر وصلوا الى صربيا قبل سنة ١٣٤٨م والى راغوصة (دوبرو فنيك) سنة ١٣٦٢ ، والى كرواتيا سنة ١٣٧٨م والى وسط ألمانيا (هلدزهايم) سنة ١٤٠٧ م والى سويسرا (بازل) سنة ١٤١٤ والى بلجيكا (بروكسل) سنة ١٤٢٠ وفرنسا سنة ١٤٢١ :
Rajko Djuric , **Seobe Roma ,** Beograd 1987, s. 40-41; Liegeois, **Gypsies,** pp. 38-41.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٤٩ ـ ٥٣ .

(٩) هناك خلاف بين الباحثين حول « السنجق الغجري » . فأنالجيك وسرت أوغلو مثلا يعتبران أن هذا السنجق لم تكن له حدود أرضية كبقية السناجق بل كان يشمل الغجر في استنبول وبلاد البلقان . أما ت غكبلغين T. Gekbilgin فيعتبر أن هذا السنجق كان له مركز كبقية السناجق (كرك كليسه أو لوزن غراد Lozengrad في بلغاريا الان) :
Djuric, s. 46; Tatomir Vukanovic, **Romi (Cigani) u Jugoslaviji,** Vranje, 1983, s. 44.

(١٠) M. Mujic , « Polozaj Cigana u jugoslovenskim zemljama pod otomanskom vlascu », POF III-IV, Sarajevo 1953 , s. 146-155.

(١١) تتميز « الحضارة » الغجرية بكونها حضارة حرفية اذ أن الغجر يميلون الى الحرف ويأنفون من الفلاحة ،ولذلك يعتبرون أنفسهم أرقى من الاخرين . وتجدر الاشارة هنا الى أن الغجر يطلقون على غيرهم اسما مشتركا يدل على استعلائهم الا وهو «كاجو» gadjo الذي يعني « الفلاح » أو « المزارع » : كليبير ، ص ٩ .

(١٢) انظر كنموذج لذلك الادب الشعبي للغجر ، حيث تبدو مثلا « الاضافات » العربية – الاسلامية التي لحقت بهذا الادب خلال تنقله من الهند الى أوربا :
قصص شعبية غجرية ، ترجمة وتقديم د. محمد موفاكو ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٩ .

(١٣) عبد الله يوركي حلاق ، حلبيات ، حلب ١٩٨٣ ، ص ٦٧ – ٧٥ ، أندريه ريمون ، العواصم العربية عمارتها وعمرانها في الفترة العثمانية ، تعريب قاسم طوير ، دمشق ، دار المجد ، ١٩٨٦ ، ص ٣٧ ، عبد الفتاح رواس قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٩ ، ص ٥٢ .
J.M. Wagstaff, The Evolution of The Middle Eastern Landscapes, London 1985, p. 196.

(١٤) القس جبرائيل رباط الرومي الملكي ، حلب ومنطقتها ، تعريب فتح الله قسطون ، حلب ١٩٢١ ، ص٣٦ ، قلعجي ، حلب القديمة والحديثة ، ص ٣٠٠ .
Bayard Taylor, The Land of the Saracen, New York 1855, reprint Arno Press 1977, p. 208; Abdul - Rahman Hamide, La ville d'Alep, Paris 1959, p.13-14.

(١٥) Hamidé, p. 14

(١٦) د. مصطفى جواد ، الغجر في المراجع العربية مجلة « العربي » ، عدد ١٢٦ ، الكويت أيار / مايو ١٩٦٩ ، ص ٣٥–٤٠ .

(١٧) Djuric, s,34.

(١٨) Ibid.

(١٩) المصدر السابق ، ص٣٤ . ولكن هذا لا ينفي وجود أسماء أخرى مشهورة أكثر للغجر في هذه البلدان . ففي البانيا مثلا اشتهروا باسم Jevgjët المنحدر من اسم مصر Egjipt وباسم arrinjgji للدلالة على ممارستهم ترويض وترقيص الدببة ، وهي المهنة التي اشتهروا بها في بلاد البلقان بشكل عام .

(٢٠) في باكستان على سبيل المثال يطلق الوسط المحلي على الغجر اسم « جات » ، وهو في الاصل اسم لعشيرة غجرية يعتقد أنه انحدر منها اسم « زط » في العربية ، الا أن الغجر هناك يرفضون هذا الاسم لانه يعتبرونه يحمل المذلة لهم ، ولذلك يفضلون مثلا تسمية انفسهم ب « القرباط » : Djuric, s. 35.

(٢١) خير الدين الاسدي ، موسوعة حلب المقارنة ج١ ، ص ٢٤ .

(٢٢) Djuric, s. 20.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٣٧ .

(٢٣) Djuric, s. 31-33.
وانظر أيضا : كليبر ، ص ٢٣٠ – ٢٣٣ .

(٢٤) كليبر ، ص ٣٨ .

(٢٥) دكتور نبيل صبحي حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الغجر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٣ ، ص ٣٨ – ٣٩ .

(٢٦) كامل بن حسين بن مصطفى بالي الحلبي الشهير بالغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج٢ ، حلب ، المطبعة المارونية ، ١٣٤٢ هـ ص ٥٠٦ – ٥٠٧ .

(٢٧) طه حمادي الحديثي، الغجر والقرج في العراق الموصل ١٩٧٩ ، ص ١٢ .

(٢٨) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ – ٥٠٧ .

(٢٩) « مع القدوم الجماعي للغجر في المناطق السلافية (شبه جزيرة البلقان) ، وبعد فتح الاتراك لاراضي البلقان ،نشأت ظاهرة عمرانية تاريخية مهمة : تجمع الغجر في حارات خاصة . ففي العصر الاقطاعي القروسطي كان الغجر يعيشون بشكل مختلط مع بقية السكان سواء في المدن أو في الريف ... أما في العصر التركي ، وحيثما وصلت سلطة الامبراطورية العثمانية ، فقد أصبح الغجر يعيشون في حارات خاصة . ومن المؤكد أن التجمع العمراني للغجر قد وفر لهم مزايا تاريخية واجتماعية واتنية اذ انه حافظ على كليتهم الغجرية (اللغة والعقلية) ...» : Vukanivic, s. 88-89 .

(٣٠) ريمون ، ص ٧١ .
(٣١) الحديثي ، ص ٥٢ ــ ٥٨ .
(٣٢) لقد ورد ذكر الفجر gpsies في هــذه المنطقة ــ المحلة خــلال « انتفاضة حلب » سنة ١٨٥٠ :
Syria and Egypt under the last five sultans of Turkey, edited by E.B.B. Barker. vol.2, London 1876, reprint Arno Press 1973, p. 291.
وفي الواقع لقد أقيمت هذه الحارة بين جامع التوبة وباب النيرب ، أحد أبواب حلب الذي سمي بهذا الاسم لانه كان يفضي الى قريــة النيرب القريبة . ولكن مع الزمن توســعت حلب كثيرا خارج الابواب وأصبحت « حارة القرباط » في قلب المدينة الحديثة :
قلعجي ، حلب القديمــة والحديثــة ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .
(٣٣) الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٣٤) خير الدين الاسدي ، أحياء حلب وأسواقها، حققه وزد عليه وقدم له عبد الفتاح رواس قلعهجي ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٤ ص ٧٠ .
(٣٥) جاء في هذه القوانين ما يلي : « من الضروري الاحتراس من محترفي المهن الوضيعة هؤلاء الذين يمتهنون الشعوذة (مادة ٨ فقرة ١٠٢) وقراء الطالع والحظوظ والكف (مادة ٩ فقرة ٢٨٥ و ٢٥٩) ومربي الكلاب التــي تدرب لعرض ألعابها على الناس (مادة ٣ فقــرة ١٦٤) وكذلك الراقص المحترف (مادة ٣ فقرة ١٥٥) وتجنب اللعب بالنرد والرقص والغناء والعزف على الالة الموسيقية (مادة ٧ فقرة ٤٧) ... ولا يجوز للبراهمي تناول طعام من يشتغل بالمعادن حتى ولو كان صائغا للذهب أو للفضة (مادة ٤ فقرة ٢١٥) ...» . :
كليبــر ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠ .
(٣٦) بسبب هذه المهارة حظــي الفجر بدخــول قصور ملوك أوربا . فقد كان للملك الانكليزي جورج الرابع عرافة غجرية ، كما كانت الملكة اسبانيا عرافة غجرية ، أما قياصرة روسيا فقد كانوا كلهم يعتمدون علىعرافات غجريات:
J. A. Hammerton, **Lands and Peoples of the world,** vol. V, Delhi (India), pp. 1907-1911.
(٣٧) الاســدي ، ج٦ ، ص ١٦ .
(٣٨) الاسدي ، ج٧ ، ص ١٣٨ .
(٣٩) الحديثي ، ص ٥٨ . ويسوق لنا الحديثي (ص ١١٨ ــ ١١٩) احصائية مدهشة تبين أن عدد المشتغلين في الرقص والغناء من الفجر في العــراق يبلــغ ١٤٤٧ فنانا من الذكــور والاناث ، أي بنسبة تساوي ٨ر٨١٪ مــن مجموع « القوى المنتجة للفجر » .
(٤٠) كليبر ، ص ١٩٩ .
(٤١) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٤٢) الغزي ، ج١ ، ص ١١٠ .
(٤٣) انظر علــى سبيل المثال الصــورة النمطية للعربي كما تبدو في الادب الشعبي الغجري : قصص شعبية غجرية ، ص٢٩ــ٣٠ .
(٤٤) الاسدي ، ج٥ ، ١١٦ .
(٤٥) كليبــر ، ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .
(٤٦) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .
(٤٧) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٤٨) يشعر الفجر بحق أنهم ملاحقون دوما بأنظار المجتمع المحلي ، الذي « يستكثر » عليهم أي شيء . ومن هنا فقد برز مثلا في مصر المثل القائل « حاسدين الفجر على ضل الشجر»: حنا ، البناء الاجتماعي والثقافة في مجتمع الفجر ، ص ٤١١ .
ولذلك فان مظهر الفقر يحمي « أغنيــاء الفجر » في هذه الحالة من فضــول وتطاول المجتمع المحلي .
(٤٩) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٥٠) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .
(٥١) الغزي ، ج٢ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٠٧ .
(٥٢) الاسدي ، ج٦ ، ص ١٧٠ .
(٥٣) حنا ، ص ٣٦ .